

7

صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ

لِللَّاتَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ [سورة الإسراء: 23 - 25]

الفهم

الشرح :

وَقَضَىٰ : قيل من القضاء بمعنى الأمر والإيجاب، وقيل من القضاء والقدر.
إِنِّي : أتضجر أو أتقذر أو أكره أو نحو ذلك.
وَلَا تَنْفَرُفَمَا : الانتهاز إظهار الغضب في الصوت واللفظ.
فَوَلَّا كَرِيمًا : قولاً لنا سهلاً حسناً.
لِللَّاتَوَّابِينَ : للتوابين أو الرجاعين إلى طاعة الله.

استخلاص المضامين :

- 1- بم أمر الله عز وجل الناس في بداية الآيات ؟
- 2- ماذا أوجب الله على الأبناء في حق والديهم ؟

التفسير

اشتملت هذه الآيات على ما يأتي:

أولاً: أمر الله بعبادته وحده:

بعد أن ذكر الله سبحانه أن الأساس في قبول الأعمال هو الإيمان بالله وحده وعدم الإشراك به، أتبع ذلك بما يقتضيه الإيمان من عبادة ومعاملة فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَّاهُ﴾. يحتمل أن يكون معنى ﴿وَقَضَىٰ﴾ في هذه الآية أمر وألزم وأوجب عليكم، وليس بمعنى القضاء والقدر؛ لأنه لو كان بمعنى القضاء والقدر لما عبد غير الله؛ لأنه لا يجوز أن يقدر الله شيئاً ولا

يقع من الكثير من الناس. قال ابن عباس والحسن وقتادة: " ليس هذا قضاء حكم، بل هو قضاء أمر". وفي مصحف ابن مسعود (ووصى ربك).

ويحتمل أن يكون المراد بها القضاء والقدر، فيكون القضاء قد تعلق بالأمر بعبادة الله، لا بنفس العبادة، أي: وقضى ربك أمره ألا تعبدوا إلا إياه، أو يكون الضمير في قوله: ﴿تَعْبُدُوا﴾ للمؤمنين من الناس دون غيرهم، وبذلك تبقى قضى على مشهور موضوعها وهو معنى القضاء والقدر.

ثانياً: أمر الله بالإحسان للوالدين والتأدب في معاملتهما:

بعد أن أمر الحق سبحانه بتخصيصه وحده بالعبادة، أردف ذلك بالأمر بالإحسان إلى الوالدين فقال: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ على التأويل الأول لمعنى ﴿وَقَبْلَى﴾ الذي هو الأمر والإيجاب، يكون قوله: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ معطوفاً على ﴿أَنْ﴾ الأولى، أي: أمر الله ألا تعبدوا إلا إياه وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً.

وعلى التأويل الثاني لمعنى ﴿وَقَبْلَى﴾ أي: بمعنى القضاء والقدر يكون قوله: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ مقطوعاً من الأول؛ كأنه أخبرهم بقضاء الله، ثم أمرهم بالإحسان إلى الوالدين.

ثم فصل ما يجب من الإحسان إليهما بقوله: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ابْنَةُ الْكِتَابِ أَهْلَهُمَا أَوْ كَلَ هُمَا فَلَا تَفْلَحُ هُمَا أَثَرٌ وَلَا تَنْفَرُ هُمَا﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر ﴿يَبْلُغُ﴾، وروى عن ابن ذكوان (يبلغن) بتخفيف النون. وعلى القراءتين يكون قوله: ﴿أَهْلَهُمَا﴾ فاعلاً، وقوله: ﴿أَوْ كَلَ هُمَا﴾ معطوفاً عليه.

وقرأ حمزة والكسائي (يبلغان) بالنون الثقيلة بعد ألف التثنية. وعلى هذه القراءة يكون قوله: ﴿أَهْلَهُمَا﴾ بدلاً من الضمير في يبلغان وهو بدل مقسم كقول الشاعر:

وكننت كذي رجلين: رجل صحيحة * * * ورجل رمى فيها الزمان فشلت

ويجوز أن يكون ﴿أَهْلَهُمَا﴾ فاعلاً، وقوله: ﴿أَوْ كَلَ هُمَا﴾ عطف عليه، ويكون ذلك على لغة من قال: (أكلوني البراغيث). وقد ذكر هذا في هذه الآية بعض النحويين، وسيبويه لا يرى لهذه اللغة مدخلا في القرآن.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ تَعَالَى اللَّهُ﴾ فيه قراءات متعددة، ومعناه: لا تقل: تضجرت أو أتضجر. فـ ﴿تَعَالَى﴾ اسم فعل، وكأن الذي يريد أن يقول: أتضجر أو أتذمر أو أكره أو نحو هذا يعبر إيجازاً بهذه اللفظة ﴿تَعَالَى﴾ فتعطي معنى الفعل المذكور. وجعل الله تعالى هذه اللفظة مثالا لجميع ما يمكن أن يقابل به الآباء مما يكرهون، فليس المقصود هذه اللفظة في نفسها، وإنما هي مثال للأعظم منها، والأقل، فهذا هو مفهوم الخطاب، بمعنى أن المسكوت عنه حكمه حكم المذكور.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَرُ مَعَا﴾ الانتهاز إظهار الغضب في الصوت واللفظ.

ثم قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِّلْعَمَلِ أَفْوَلاً كَرِيماً﴾ والقول الكريم هو القول الجامع للمحاسن من اللين وجودة المعنى وتضمن البر، وهذا كما تقول: ثوب كريم، تريد أنه جم المحاسن. وسئل سعيد بن المسيب عن القول الكريم فقال: هو قول العبد المذنب للسيد الفظ.

ثم أمر تعالى بالمبالغة في التواضع معهما فقال: ﴿وَإِخْفِضْ لِّعَمَلِ جَنَاحِ الدَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ استعارة حيث شبه الذل بطائر ذي جناح، ثم حذف الطائر، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو الجناح، أي: أقطعهما جانب الذل منك ودمت لهما نفسك وخلفك. وبولغ بذكر الذل هنا ولم يذكر في قوله: ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَهُ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 214] وذلك بحسب عظم الحق هنا.

والذل في الدواب ضد الصعوبة، ومنه الجمل الذلول، والمعنى يتقارب. وينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في خير ذلة في أقواله واستكانته ونظره، ولا يحد إليهما بصره، فإن تلك هي نظرة الغاضب.. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: "رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف، قيل: من يارسول الله؟ قال: "من أدرك أبويه عند الكبر، أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة" [صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر، فلم يدخل الجنة].

وقوله: ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ "من" هنا لبيان الجنس، أي: إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة في النفس لا بأن يكون ذلك استعمالا، ويصح أن يكون لابتداء الغاية.

ثم أمر الله عباده بالترحم على الوالدين وذكر منتهما عليهم في التربية؛ ليكون تذكر تلك الحالة مما يزيد الإنسان إشفاقا وحنانا عليهما، قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾

قال القرطبي: " أمر تعالى عباده بالترحم على آبائهم والدعاء لهم، وأن ترحمهما كما رحماك، وترفق بهما كما رفق بك؛ إذ ولياك صغيرا جاهلا محتاجا فأثراك على أنفسهما، وأسهرهما ليلهما وجاعا وأشبعاك، وتعريا وكسواك، فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحد الذي كنت فيه من الصغر، فتلي منهما ما وليا منك، ويكون لهما حينئذ فضل التقدم ". [الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 244/10]

ثم حذر الله تعالى عباده من التهاون في بر الوالدين فقال: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي: ربكم أعلم بما في نفوسكم من اعتقاد الرحمة بهما والحنو عليهما أو من غير ذلك، فليس ظاهر برهما إذا كان فيه الإخلاص رياء؛ لأن الله تعالى مطلع على ما في نفوسكم، وأعلم بأحوالكم الظاهرة والباطنة.

ثم وعد في آخر الآية بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة بعد الأوبة إلى طاعة الله فقال: ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا﴾. اختلف في المراد بـ ﴿لِلْأَوَّابِينَ﴾ في الآية، فقالت فرقة: هم المصلحون، وقال ابن عباس: هم المسبحون، وقال أيضا: هم المطيعون المحسنون، وقال ابن المنكر: هم الذين يصلون العشاء والمغرب، وقال عون العقيلي: هم الذين يصلون صلاة الضحى. وحقيقة اللفظة أنه من آب يؤوب إذا رجع، وهؤلاء كلهم لهم رجوع أبدا إلى طاعة الله تعالى. قال ابن المسيب: هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب. وفسر الجمهور ﴿لِلْأَوَّابِينَ﴾ بالرجاعين إلى الخير. وقال ابن جبير: أراد بقوله: ﴿لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا﴾ الزلة والفتنة تكون من الرجل إلى أحد أبويه، وهو لم يصر عليها بقلبه ولا علمها الله من نفسه.

ثالثا: مقاصد الآيات:

ترشد هذه الآيات إلى جملة من المقاصد التربوية، منها:

• الأمر بعبادة الله وحده وإخلاص العبودية له دون سواه، هذه العبادة التي غاية وجود الإنسان في هذه الحياة.

• الالتزام بعبادة الله هو الذي يحقق للإنسان حريته الكاملة؛ لأن العبودية الخالصة لله هي عين الحرية، وسبيل السيادة الحقيقية.

• التذكير بنعم الله الكثيرة على الإنسان، ومن أكبر هذه النعم الوالدين، اللذين جعلهما الله سببا لإيجاد الإنسان، وهما لخدمته في صغره، وجعل ذلك غريزة فيهما، كما هيأ الولد أيضا لخدمة والديه في كبرهما، وأمره بالإحسان إليهما والعناية بهما.

• التأكيد على الإحسان إلى الوالدين جزاء لهما على ما أسديا لأبنائهما من مجهودات وعطايا وخدمات، ويتأكد هذا الإحسان في حالة كبرهما وعجزهما، والإحسان كما يكون ماديا بالإنفاق عليهما وجوبا أو تطوعا، يكون معنويا بخفض الجناح وإلانة الكلام والطاعة في غير معصية.

التقويم

- 1 - ما معنى قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ ؟
- 2 - ما السر في اقتران الأمر بعبادة الله بالإحسان إلى الوالدين في كثير من الآيات؟
- 3 - علام يدل قوله تعالى: ﴿قُلْ تَقَالِبُوا أَنفُسَكُمْ﴾ منطوقا ومفهوما؟
- 4 - أوضح معنى قوله: ﴿وَأَخِمْزْ لِنَعْمَاجِنَاحِ النَّالِ﴾ مستعينا بالقواعد البلاغية.

الاستثمار

قال فخر الدين الرازي رحمه الله: " اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ بِعِبَادَةِ نَفْسِهِ، ثُمَّ اتَّبَعَهُ بِالْأَمْرِ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَبَيَّنَّ الْمُنَاسِبَةَ بَيْنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَبَيْنَ الْأَمْرِ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ مِنْ وَجْهِ: الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّ السَّبَبَ الْحَقِيقِيَّ لَوْجُودِ الْإِنْسَانِ هُوَ تَخْلِيقُ اللَّهِ تَعَالَى وَإِيجَادُهُ، وَالسَّبَبُ الظَّاهِرِيُّ هُوَ الْأَبَوَانِ، فَأَمَرَ بِتَعْظِيمِ السَّبَبِ الْحَقِيقِيِّ، ثُمَّ اتَّبَعَهُ بِالْأَمْرِ بِتَعْظِيمِ السَّبَبِ الظَّاهِرِيِّ. الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ الْمَوْجُودَ إِمَّا قَدِيمٌ وَإِمَّا مُحَدَّثٌ، وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُعَامَلَةُ الْإِنْسَانِ مَعَ إِلَهِ الْقَدِيمِ بِالتَّعْظِيمِ وَالْعُبُودِيَّةِ، وَمَعَ الْمُحَدَّثِ بِإِظْهَارِ الشَّفَقَةِ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: " التَّعْظِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ وَالشَّفَقَةُ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ ". وَأَحَقُّ الْخَلْقِ بِصَرْفِ الشَّفَقَةِ إِلَيْهِ هُوَ الْأَبَوَانِ لِكَثْرَةِ إِنْعَامِهِمَا عَلَى الْإِنْسَانِ. فَقَوْلُهُ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إِشَارَةٌ

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّ الْإِشْتَغَالَ بِشُكْرِ الْمُنْعِمِ وَاجِبٌ، ثُمَّ الْمُنْعِمُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وَقَدْ يَكُونُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ مُنْعِمًا عَلَيْكَ، وَشُكْرُهُ أَيْضًا وَاجِبٌ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: " مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ ". وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلَائِقِ نِعْمَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مِثْلَ مَا لِلَّوَالِدَيْنِ ". [مفاتيح الغيب، لفخر الدين الرازي: 321/20]

1 - ما السر في الأمر ببر الوالدين عقب الأمر بعبادة الله.

2 - ما معنى كون الوالدين سببا في وجود الإنسان؟

أتأمل الآيات: 26 - 30 من سورة الإسراء وأجيب عن الآتي:

2 - أبحث في الطرق الشرعية لاكتساب المال وإنفاقه.

57